

مرايا الناس (*) للأستاذ حبيب الزحلاوي

—>>><<<—

السيدة وداد سكاكيني ، أديبة سورية ، وكاتبة من الطراز الأول بين جميع بنات جنسها ، وأقدر من عرفت من كاتبات العربية على الجمع بين حسن الديباجة ، وطلاوة الأسلوب ، وسلامة البيان ، واختيار الألفاظ ، وبراعة السبك ودقة التصوير خصوصاً في الأمور الواقعية .

ما قرأت لهذه السيدة بحثاً من البحوث إلا أحسّت بالجهد الذي أنفقته والمناية التي بذلتها في صقل جملها لتكون على أتم وأكمل ما يترأى لها ، وعلى أحسن ما يمكن أن يكون وقعها في نفس قارئها ، وهذه صفات قلما وجدنا لها نظيراً بعد المرحومة الآتية « ميمى » بين كاتبات العربية في هذا العصر . بل هي ميزة تمتاز بها على قريباتها خصوصاً في معرفة مداخل الموضوعات والمخلص منها .

جمعت هذه السيدة الفاضلة ما كتبت في مسهل حياتها من قصص في كتاب أحسته « مرايا الناس » ؛ وأول ما يبدو لحاظ قارئ هذه المجموعة أن مؤلفتها كانت حبيسة دارالزوجية لاتسمع فيها — إن سمعت — سوى أحاديث الكتاب والأدب ، والكتّاب والأدباء ، ولا تخرج من دارها إلا لتذهب إلى المدرسة تعلم بعد أن تعلمت وأخذت منها كل ما يمكن أن تعطيه لفتاة مجتهدة مثلها ، وإذا جنحت عن المدرسة أو البيت — وقل ما نلاحظه في هذه المجموعة أنها جنحت عنها — فتكون لزيارة صديقة قريبة أو زميلة . وقد ألس الحقيقة إذا قلت إن حوادثها الخاصة وصورها الذاتية الرسومة في كتاب « مرايا الناس » مستمدة من محيط ضيق كل الضيق لم يتخط بيت طفولتها . ودور المدارس ، ومنزل الزوجية . والمؤلفة برغم هذه العقبات وأسمها عقبات كأداء لسيدة متوثبة الذهن ، متحفزة لاقتحان ميدان الحياة واجتلاء أسرارها ، ألفت هذه المجموعة من القصص نجاحات ضيقة الحدود ، متعرجة الخطوط ، ناصلة الألوان ، غير واضحة المعالم ، وقد بدا شأنها فيها كشأن مقتحم الصحراء وهو غير مزود حتى بالبوصلية . وأزعم أن مجموعة قصصها الجديدة ، وقد كتبت ما كتبت منها تحت سماء مصر ، هذا القطر السعيد ،

الفطرى للتعليم ، وأن الإسلام لم يهتم بأمر الطفل ... فأكد لنا الأستاذ الأهواى أن هذا الإستشرق لو عرف رسالة القابسي لغير هذا الرأى الخاطىء ، فكيف بها وبغيرها من المؤلفات التي عنيت بالتربية والتعليم ! (ص ٢٢٥ - ٢٢٦) . هذه الرسالة التي — كما جاء في آخر القسم الأول من البحث — وضع بها القابسي مؤلفها أسس التربية بحيث تلائم المجتمع وحاجة العصر ، والتي فكر فيها في التعليم الإلزامى وتعليم البنات .

وبعد فقد كنا نود الوقوف عند هذا ، ولكن نرجو أن يسمح لنا الدكتور الفاضل بأن نشير إلى أمرين :

(أ) استعمل في مواضع « أهل السنة » للدلالة على « أصحاب الحديث » (ص ٧٥ ، ٧٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣) . والمعروف أن أهل السنة في المقام الذي جاء ذكرهم فيه ، هم الأشاعرة والاثريدية الذين يقابلون المعتزلة ، لا أصحاب الحديث ، كما يتبين من ابن خلدون وطاش كبرى زاده وغيرهما من الذين عرضوا للكلام والتكلمين (ب) ذكر الأستاذ الفاضل (ص ٧٧) رأى الغزالي عن المعتزلة من أنهم رأوا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بأدلتهم فهو كافر ... ومع أن هذا ، كما ذكر الأستاذ ، ورد في فيصل التفرقة للغزالي ، إلا أنه كان الواجب في رأى أن يأتي الأستاذ بنص في ذلك من كتب المعتزلة أنفسهم ، لا من خصم لهم ، ولكننا نعرف قول الخصوم بعضهم على بعض . وبخاصة والمعروف المشهور أن هذا التضييق على الناس في وجوب معرفة الله من أدلة خاصة لها مقدمات خاصة هو رأى القاضى أبى بكر الباقلانى الذى ذهب إلى أن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول ؛ حتى جاء إمام الحرمين الجُويُنَى وأعرض عن هذا الرأى ، وقرر أن بطلان الدليل لا يؤدى إلا ببطلان المدلول بحال .

هذا ، وليس هذا المأخذ أو ذلك مما يفرض من قيمة هذه الرسالة القيمة التي عاجل فيها صاحبها العالم الجليل مسائل التربية والتعليم — على تنوعها وتمدها — في القديم والحديث بمقدرة يستحق التهنئة عليها وأسلوب واضح مبين ومنهاج مستقيم لا عوج فيه . وهذا كله وأكثر منه نتظره من الدكتور الأهواى الذى تخصص في هذا الموضوع زمناً طويلاً .

محمد يوسف موسى

(*) يقع في ١٥٣ صفحة من القطع الوسط ويطلب من مكتبة مصر

والفلاسفة والمشتغلون بالفلسفة مسئولون عن هذا النفور الذي يعانيه الجمهور من القراء . ولا أدري ماذا كانت حجبتهم في الأبهام وعذرهم في التعمية . وهل فعلوا ذلك عن قصد حتى تبقى للفلسفة رهبة النفوس وهيبة الخفاء ؛ وحتى يكون لهم وحدهم مفتاح الأسرار والاستئثار بالأستار ، أم جاءهم ذلك النفوس من طبيعة الفلسفة نفسها لأنها تبحث وراء « المجهول » « وما بعد الطبيعة » وما إليهما مما أبدىء الكلام فيه وأعيد ولا يزال المجهول مجهولاً ؟ والحق أن كثيراً من موضوعات الفلسفة — وخاصة عند المسلمين لا يفيد الفارئ، أكثر مما يتعب ذهنه ويحير عقله — كالكلام في النفس ووحدها وبقائها ؛ وكالكلام في الكون وهل هو حادث أم قديم ، وكالكلام في معرفة الله للجزئيات أو الكليات ، وكالكلام في البعث وهل هو لأجسام الدنيا بأعيانها أم بأمثالها .

وقد ظل الفلاسفة يبحثون في هذا وأشباهه فما أراحونا ولا أراحوا أنفسهم ، ولا أراحوا الستار عما تتحرق نفوسنا إلى معرفته وتنتطلع إلى كشفه . حتى لقد مات الرازي وهو لا يدري إلى أين ... وعبر عن ذلك بقوله في يتيين يعبران عن سؤال كل نفس من عهد آدم إلى أن يشاء الله ، وهما :

لمعري ما أدري وقد آذن البلى بماجل ترحال إلى أين ترحال
وأي عمل الروح بعد خروجها من الهيكل النحل والجسد البالي
ولقد أراح — والله — خطيب أباد وحكيمها « ابن ساعدة »
نفسه حينما قال قبل الإسلام :

لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قوي نحوها يمتضى الأصغر والأكابر
أيقنت أني لا عا لة حيث صار القوم صائر ...
ولقد ألهم الله الجمعية الفلسفية المصرية صواباً في القول حين
قالت في تصدير أول كتاب من كتبها « وإذا أراد الله بالفلسفة خيراً
ألهم أهلها أن يسلكوا سبيلاً أخرى ، فيعتنوا بالشئون الإنسانية ،
وبالأمور التي يتجه إليها التفكير في كل زمان ومكان ، ويعالجوا
بحوثهم في أسلوب سائق جذاب يفتح باب الفللفة على مصراعيه
لجمهور الثقفين » .

أما العناية بالشئون الإنسانية فنجد أن الدكتور علي عبد الوحد
واقى قد هدف إليها في رسالته الجليلة « الأسرة والمجتمع » التي
تعد بحق تحفة في المكتبة العربية . ونجد أن أساتذة آخرين
سيكتبون في سلسلة هذه الجمعية عن الحياة الأخلاقية ، والتبشيع

الحياشة صدور أدبائه بالطموح إلى الخروج عن الطوق ، وإثبات
الشخصية ، والساورة أقلام نقاده في جناب من المديح والثناء
المأجور ، أقول إنها ستعنى كثيراً بعرض موضوعها القصصى
ومعالجته وتحليل شخصيات القصة ، وتسلسل الحوادث ، وبالعقدة
والخاتمة ، وبالمحافظة على عنصرى الصدق والتشويق ، وإلى خصائص
مقررة لا يحيد ألبتة عن التزامها في بناء القصة . أما مجموعتها هذه
فهي غنية بالصور الوصفية ، وقد تكون قصة « شقيقة نفسى »
من أغناها ، لأن بناءها قائم على رسم تطور حياة فتاة ، هي حياة
المؤلفة الخاصة قالت :

« وقد مررت الأيام على « وئام » فالتقت بها في لجة الحياة ،
وكأنها كانت تقول لها : حاولى النجاة ... فلاحت لها الدنيا
بوجهها ، ورأت فيها الحماة الوديمة والحية الرقطاء . ثم فتحت
كتاب الناس فزاعها أن لم تجد فيه صفحة مما تعلمته في المدرسة ،
وندمت على شباب نسجته بالمثل العليا ، فأخذت تتعمرس بأفات
المجتمع غير منطوية على يأس ، ولا متقنمة بمصانعة »

ثم تقول « وأسدل الستار على فصل من رواية عمرها ، فإذا
هي في فصل جديد ، وإذا بها ككل أنثى تنضو عنها فتوة جاهدة ،
وتروز نيمات جديدة ، فتشيع قافلة من السنين مجاوز العشرين ،
وينبثق حجاب الزمان عن سر القصد القريب ، فإذا بها تجلى في
طلعة دنياها التي خلقت من أجلها كل أنثى » .

أحبي السيدة وداد تحية الولاء والصدافة ؛ وأرجو أن تحملنى
مجموعة قصصها التالية على الوقوف عند كل قصة وقفة التهم من
موائد مترعة الكؤوس بمحمة الحياة .

شخصيات ومذاهب فلسفية*

من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

من طبيعة الأدب شعره وتثره أنه سهل الدخول إلى النفس
في يسرولين لاعنف ولأمشقة . وأن النفس تقبل عليه بدافع منها ،
راضية عنه مقبلة عليه مستأنسة إليه .

أما الفللفة فلا يقبل عليها من الناس إلا من رزق الصبر عليها
والأنس بها . وقلما كانت الفللفة أنيسة إلى النفوس لأنها كالسباع
من الحيوان لا يقدم عليها إلا من رزق القدرة على ترويضها وتأليفها .
(٥) للدكتور عثمان أمين مدرس الفللفة بكلية الآداب — مطبعة الحلبي .

حد لا تغفره لك عربيتك وإسلامك ، ولا يغفره لك الإنصاف العلمي التاريخي ، على الرغم من إعلانك أنك لا تنتحل الأسباب للإشادة بفضل المسلمين على غير حق . فقد كتبت في صفحتين ونصف صفحة على حين خصصت « ديكارت » بأربعين صفحة من الكتاب .

وما كنت يا أخي منصفاً لعرب حين قلت في هذا الفصل « ولعل أسينوza عرف شيئاً من نظريات العرب عن طريق موسى ابن ميمون » . وإيراد الخبر على هذا الأسلوب يورده موارد الشك على حين أن Will Durant يورده مورد اليقين في كتابه : "The Story of Philosophy" (١)

ولقد ذكرت يا أخي أن « هيوم » نشر كتابه « رسالة في الطبيعة البشرية » سنة ١٧٤٠ . وليس الحق كله معك في هذا ... فإن « الطبيعة البشرية » ظهرت في يناير سنة ١٧٣٩ . في مجلدين ؛ أما الذي نشر سنة ١٧٤٠ فهو المجلد الثالث وموضوعه مبادئ الأخلاق .

وذكرت أن « هيوم » بعد رحلته في فرنسا عاد إلى أدبره فقضى فيها آخر سنى حياته . وهنا طفرة في التاريخ لا أظنها خفيت على علمك . فقد عاد من فرنسا إلى أدبره - كما تقول - ولكنه تركها إلى لندن موظفاً كبيراً في وزارة الخارجية فقضى فيها سنتين ثم استقر آخر الأمر في أدبره سنة ١٧٦٩ (٢)

أما السياسة عند ابن سينا وكتابه فيها فلم تتعرض لها ولا له !! وأنا أعرفك يا أخي بعيداً عن السياسة المصرية بطبيعة وظيفتك وطبيعة نفسك التي ترسل الابتسامه المرة لما تقع عليه من أمورنا ... ولكن سياسة ابن سينا يا أخي تستحق الإعجاب ولا تستحق مرور الابتسامات . وقد كتب عنها الأب بولس مسعد فصلاً لطيفاً في كتابه الصغير عن « ابن سينا الفيلسوف » (٣)

وبالرغم مما ذكرته لك فإن كتابك قد ترك في نفس الأثر الطيب الذي تتركه عندي آثارك . وقد نزل من مكتبي المنزلة التي أنت أعرف الناس بها . فأهنتك على كتابك وأهنتك على جهنك في الجمعية الفلسفية التي وقعت أعمالها من نفوسنا مواقع الماء من ذى الغلة الصادي

والإصلاح الاجتماعي . وأمثال هذه الموضوعات التي تتناول الواقع والحياة ، ولا تطر وراء الغيبات والمجهولات ...

ولكن الدكتور عثمان أمين - وهو شريك الدكتور على عبد الواحد وافي في كتابة تصدير هذه السلسلة - ترك الناية بالشئون الإنسانية من أخلاق وسياسة واجتماع وراح إلى الفلسفة يبتسم عندها سدّ النقص في القوة الإصلاحية والروحانية . لأنه يرى أن (كل إصلاح تم في الماضي أو سيتم في المستقبل إنما هو أثر من آثار الفلاسفة وأحرار المفكرين) .

وما كان الأنبياء يا صديقي فلاسفة ولا أحرار تفكير ولكنك لا تنكر الإصلاح الذي تم على أيديهم :

على أن اكتشافك بالكلام في الشخصيات الفلسفية وتركك التأليف في الشئون الإنسانية - كما صنع الدكتور على عبد الواحد - يُعدُّ ركونا إلى أهون الخلق وأخف السنين ...

إلا أنني لا أكتمك أنني وجدت في كتابك لونا من التمتع واللذة عرفته من قبل في كتابك عن « محمد عبده » . ووجدت في أسلوبك الواضح السائق أخذاً بما عاهدت أنت ورئيس الجمعية في تصديرك لأول كتاب .

وما أنا بقاتل هنا لك جديداً ؛ فقد كنت أفرؤك في مجلة « المقتطف » من سنوات فأجد فيك من الموضح ما صارحتك به من حين إلى حين . وهأنذا اليوم أفرؤك فأجدك سائق الأسلوب في سقراط ، وفي الثلاثة الفلاسفة المسلمين الذين شئت أن تكتب عنهم ، وفي ديكارت وهيوم من الغربيين .

ولا أدري يا أخي السر في اختيارك هؤلاء الثلاثة من المسلمين بأعيانهم مع كثرة ما كتب عنهم ونشر فيهم . فهلاً كتبت عن ابن زهر والرازى وابن بطالان أو غيرهم مما لا يعرف الناس عنهم إلا قليلاً . ولم تختار طريقاً معبداً وأنا ما عرفتك إلا بجتاز الصخور والوعور؟؟

وهل بين الذين كتبت عنهم غرض يؤلف بينهم ، أو غرض اتفق لك في الكتابة عنهم ؛ أم هي أشقات من الشخصيات لا يؤلف بينها غرض ولا يجمع بينها إلا كلمة الفلسفة؟؟

ولا يزال (ميزانك) يا أخي في تقديم الكتاب وحفظ

النسب بين فصوله فيه كثير من السحاء في موضع ، والشح في موضع . فإن الفصل الذي كتبتَه عن آثار الفلسفة الإسلامية في الفلسفة المسيحية واليهودية لا يشفي غليلاً . فقد أوجزت فيه إلى

(١) ص ١٦٢ طبعه Simon and Schuster نيويورك .

(٢) دائرة المعارف البريطانية مادة David Hume

(٣) مطبعة الاعتماد على السور بيروت سنة ١٩٢٧